عالم المستقبل وبرامج الشباب

للأستاذ سيد قطب

من المتفق عليه اليوم أن عالم المستقبل لن يكون كعالم الماضى . هنالك تطورات كثيرة ، بل هنالك انقلابات يتمخض عنها ضمير الغيب الآن ، وإذا كانت الحرب العظمى الماضية قد انكشفت عن تغيرات أساسية فى الأفكار والنظم والاتجاهات ، فكم يكون للحرب الحاضرة — وهى أعظم — من آثار وتطورات ؟

والمستقبل لم يكن كالماضى فى عصر من العصور . فركب الانسانية يسير ، والدنيا تتبدل أطوارا بعد أطوار ، ولكن الفوارق كانت هناك محدودة ، والتطورات كانت يومذاك قليلة ، أما اليوم فالدنيا تقفز وركب الانسانية يركض ، والتقلبات والتطورات رديفة بتلك القفزات والركضات !

والعالم فى الماضى كان يتطور أجزاء وتفاريق ، كل أمة وظروفها وما تستطيعه من تحول ، لأن الروابط بين أجزاء العالم كانت قليلة ، والمسافات بين هذه الأجزاء كانت شاسعة ، ومع هذا فالمتتبع لسير التاريخ العام يرى أن العالم كان يسير كله فى النهاية على نشيد واحد ، وإن تباعدت أصداؤه ، وأن الأحداث الكبرى كانت تترك آثارها فى العالم كوحدة ، وإن أبطأ سريانها فى بعض أجزائه وأسرع فى بعضه الآخر .

أما اليوم فالعالم كله وحدة حقيقية ، وحدة فى الزمان محققة ، ووحدة فى المكان فى سبيل التحقيق ، فالكلمة اليوم تقال فى طرف من أطراف العالم فتلف الكرة الأرضية فى بضع ثوان ، ففارق الزمن معدوم فى الحقيقة ، والزمن وحدة فى الوجود كله بلا مراء ، أما فارق المكان فقد تضاءل ، ولا يزال يتضاءل ، حتى ليكاد لا يحسب له كفارق الزمن حساب !

ومن شأن هذا كله أن يجعلنا نفتح بصائرنا وأبصارنا لكل نبأة وكل خبر فى أى ركن من أركان العالم ؛ وأن لا نقول لحركة من الحركات الفكرية أو الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية فى أى مكان قصى : " وما لنا نحن وهذه الحركة التى تفصلنا عن مصدرها الألوف من الأميال ؟ لقد كان ذلك فى الماضى . أما اليوم فلا ! إن كل حركة — كبيرة كانت أو صغيرة ، بعيدة كانت أو قريبة — لها أثرها فى محيطنا . وعواقبها فى أرضنا ، وهزتها فى أعصابنا ، ورفعتها فى اتجاهنا .

* * *

تلك حقائق يجب أن نعيها جميعا ، وأحق الجميع بالوعى هم جماعة الشباب .

فالشباب أقل ارتباطا بالماضى ، وأكثر تطلعا للمستقبل ، وأشد مرونة للتحول والتشكل ، فهو من ثم أصلح لفترات الانتقال ، ذلك أنه لم يتصلب بعد ، لم يرتبط بالماضى ارتباطا لا فكاك منه ، لم يألف جوا معينا من أجواء الحياة تعز عليه مفارقته ، ويصعب عليه تغييره . والانسان يتأقلم كما يتأقلم النبات والحيوان . والنبتة الوليدة والحيوان الصغير أشد استعدادا للتأقلم بالبيئة الجديدة من النبات المكتمل والحيوان المكتهل . اللذين قلما يعيشان فى البيئة الجديدة أو يصلحان للنماء .

وقد تقتضينا التطورات العالمية خلق نظم جديدة ، وإبداع اتجاهات مبتكرة ، فالشبان حينئذ هم الذين لا يجدون فى الطفرة مستحيلا ، ولا فى الابتكار صعوبة ، لأنهم بطبيعتهم أميل إلى التقحم والوثوب ، وأبعد عن الميل إلى الراحة والاستقرار ، وللتجديد فى شعورهم لذة ، وللتجربة فى إحساسهم مذاق ، بل إن التغير والتحول لعنصر من عناصرهم الطبيعية فى سن الشباب .

ولقد تمر بنا فترة لايجدى فيها الترقيع والتحوير ، إنما تحتاج للإنشاء والتجديد ، وعسير على من تألف نفسه نظما معينة ويعيش فى ظلها شبابه ورجولته ، أن يسلم بسهولة فى تغيير هذه النظم من الأساس ، وإنه ليحاول إذن ترقيعها عسى أن تصلح لمواجهة الموقف ، ولما كان عالم المستقبل سيكون طفرة فى الغالب بالقياس إلى عالم الماضى ، فاننا نخشى أن تكون الفترة التى تمر بنا فى حاجة إلى البت السريع والابتكار الجرىء ، فنقابلها بالتروى والتمهل ، ونحاول الترقيع البطىء الذى لا يحتمله الموقف ، فتكون هذه الفترة حاسمة فى تاريخنا ، وتفلت الفرصة فيها من أيدينا ، ويكتب علينا التخلف عن الركب العالمى ، إلى أجل غير مسمى !

ثم إننا منذ اليوم فى حاجة إلى خلق الكثير من النظم والقوانين ، لا ترقيعها ولا تحويرها ، فكثيرا ما تفقدنا هذه النظم عن تنفيذ ما نراه صالحا ولازما ، فنلف حولها وندور ، ونخترع لها التفسيرات والتأويلات ... وهذا كله يجب أن ينتهى إلى حد ، وأن نجد فى أنفسنا الشجاعة لتغيير ما لا يسعفنا من هذه النظم للإصلاح التام .

* * *

للشباب إذن مهمة كبرى تنتظره فى المستقبل القريب . فماذا أعد هذا الشباب للمستقبل ؟ وبماذا سيواجه تلك المهمة التى خلقت لها كواهل الشباب ؟

نحن لا نعرف إلا القليلين من الشبان الذين يهيئون أنفسهم لشىء ما !

هذه حقيقة يجب أن نواجه بها جيل الشباب فى مصر. فالكثرة الغالبة من هذا الشباب تعيش ليومها ، مجروفة فى التيار العام ، مستغرقة فى المطالب اليومية الصغيرة ، هازلة هاذرة ، لا تنظر إلى شيء فى الحياة نظرة جدية ، ولا تحاول أن يكون لها تأثير فى التيار. وأما القلة القليلة المتطلعة الشاعرة بوجودها ، فلا نسمع لها إلا هتافات وصيحات منقطعة ، حول المذاهب الاجتماعية الحديثة ، ولكنها على الأغلب تقلد بلا فهم ، وتنادى بما تنادى به على سبيل "المودة" وفى سبيل حب الظهور. ومع ذلك فهى خير الطائفتين ، وهى التى تنوط بها الأمل على ما فى حقيقتها من ضآلة وضمور !

لا أحب أن أشيع التشاؤم بهذه الكلمات ، ولا أن أدع اليأس يستولى على نفسى من هذه الشبيبة ... فهذه القلة القليلة من الشبان الطامحين يمكن أن يكون لها حساب فى مصاير الأمور فى المستقبل ، إذا هى نظمت نفسها على أساس من المبادئ المدروسة ، والاتجاهات المحدودة ، أما الكثرة الباقية فهى خليقة أن تصبح قوة دافعة حين تجد الرءوس والمبادئ والاتجاهات ولو تهيأت لنا حفنة قليلة منظمة من الشبان الأكفاء ، ذوى المبادئ والمطامح فإن هذا وحده يكفى ، وهو كفيل باجتذاب البقية الباقية عن طريق القدوة ، وعن طريق الطمع أيضا ؟

إن الصيحات المتفرقة ، والدعوات الفردية ، لها دورها ولها قيمتها : فدورها هو دور التنبيه والإيقاظ ، وقيمتها هى يقظة الشعور والإحساس . ولكنها تقف عندئذ ولا تجدى نفعا ، بل كثيرا ما تؤذى ، لأنها تزعزع كيان النظم القائمة دون أن تعوض المجتمع عنها نظما أخرى صالحة يقوم عليها . والمجتمع لا يمكن أن يستغنى عن نظام قائم ، وإلا أسلمناه للفوضى التى تهدم ولا تبنى ، وتخرب ولا تعمر . وليس فينا من يشاء لوطنه هذا المصير الأليم .

* * *

ينبغى إذن أن يكون من وراء الصيحات المتفرقة ، والدعوات الفردية ، نظام مدروس واتجاه معروف . نواجه به المستقبل القريب فى تهيؤ واستعداد .

والطريقة العلمية هى التى تحكم اليوم فى تفكير العالم واتجاهه . وعليها تقوم أسسه وأنظمته فى الحرب أو فى السلم سواء . فلا مجال اليوم للبرامج المرتجلة ، ولا للاتجاهات الانفعالية . وكل برنامج لا يعتمد فى أساسه على الطريقة العلمية ، إنما يتعرض للاضطراب والاختلال ، عند التجربة العملية الأولى .

وأساس هذه الطريقة العلمية فى محيط المجتمع هو الدراسة والإحصاء : دراسة الواقع الكائن وإحصاء الموجود والمنظور . ثم وضع برامج المستقبل فى ضوء الممكنات العملية ، بعد الدرس والإحصاء .

فهل يعرف أحد من المشتغلين بالشؤون العامة عندنا — وبخاصة من الشبان — شيئا عن هذه الطريقة؟ وإذا عرف فهل هو يستخدمها؟ وإذا كان قد استخدمها فى بعض النواحى فهل جمع من الاحصاءات والدراسات ما يكفى لبناء منهاج عام ؟

الجواب عن هذه الأسئلة جميعا بالنفى ؛ وبخاصة عن هذا السؤال الأخير . ومعنى هذا أنه لا يحق لأى منا اليوم أن يرسم لعالم المستقبل صورة ، ولا أن يجازف بوضع برنامج عام . إنما يجب أن يبدأ العمل لهذه الدراسة العلمية المنظمة ، بتنظيم هيئات — على وضع من الأوضاع — تكون مهمتها جمع الأرقام وتحضير المشروعات ، ثم بناء منهج ضخم قائم على هذه الدراسات .

ولا يجوز الاعتماد على الحكومة فى القيام بهذه الدراسات ، وفى تحضير شتى المشروعات. فهذا أولا واجب الهيئات الحزبية ، وواجب الجماعات المشتغلة بالشؤون الاجتماعية . وقد يكون الطريق ميسرا للهيئات الحكومية بما تملكه من السلطة ، ومن الاحصاءات والأرقام ولكن هـذا لا يعفى الجماعات الشعبية — وبخاصة جماعات الشباب — من النهوض بهذا الواجب الأساسى . فالهيئات الحكومية قيود من شتى الأنواع . وللهيئات الشعبية حريتها وانطلاقها . وهذا واجبها الأول ، والا كانت لا تستحق الوجود .

وفى البرلمان الحالى مجموعة من هؤلاء الشبان ، وهذه فرصة يجب ألا تكون ثمرتها الوحيدة وجود بضعة من الشبان هناك ! إنما يجب أن تستغل هـذه السلطة الموضوعة فى أيديهم للحصول على البيانات والإحصاءات ، ولدراسة الواقع على حقيقته وما فيه من عيوب ، ولتنظيم البرامج العملية على ضوء الواقع والاحصاء ، ثم التقدم بهذه البرامج المدروسة للبرلمان أو للشعب وأهم من ذلك كله : التهيؤ بها للمستقبل الذى ينتظرنا الآن .

لقد شيعنا ارتجالا ، وشيعنا إعلانا . ولقد أضعنا أوقاتا ثمينة فى الاهتمام بالجزئيات ، وفى محاولة تطهير المنصب قبل المنبع فى كل ماهممنا به من مشروعات .

وضعنا مشروعا لمحو الأمية ، ومشروعا لمكافحة الحفاء ، ومشروعا لمكافحة التشرد ، ومشروعا للبر والإحسان ... ... إلى آخر هذه المشروعات التى لم تكن إلا إعلانا أو مايشبه الإعلان .

وحتى على فرض جديتها ، والإخلاص فى الدعوة إليها . فإن قيامها ارتجالا كان كفيلا بأن تصير إلى ماصارت إليه !

إنها لم تقم على أساس من الطريقة العلمية التى أشرنا إليها . لم يسبقها إحصاء دقيق عن عدد الذين سيتناولهم كل مشروع ، والمبالغ الحقيقية اللازمة للتنفيذ ، والموارد التى تكفل هذه المبالغ بطريقة منظمة ، والوسائل التى ينفذ بها المشروع على فرض توافر المال ، وحالة

من سيتناولهم المشروع وظروفهم الاجتماعية والاقتصادية والعقلية بالضبط ، وموافقة الوسائل المقترحة لهذه الظروف القائمة ... إلى آخر ما ينبغى جمعه من البيانات ، وتمحيصه من الدراسات قبل التصميم وقبل الإعلان .

على أن التفكير على هذا النحو كان تفكيرا خاطئا من الوجهة الاجتماعية . فليست هذه العيوب الاجتماعية أمراضا أصيلة ، إنما أعراض لمرض أصيل ، وهى من الوجهة المرضية كالبثور والدمامل تدل على معدة فاسدة وبنية معتلة . وعلاجها إنما يكون بعلاج هذه المعدة وتصحيح هذه البنية ، لا بالمراهم والمسكنات الخارجية .

يجب إذن ألا نكرر هذه الأخطاء . فالبحث فى أسس التأمين الاجتماعى ، بطريقة من الطرق الدائمة أولى من البحث فى هـذه الظواهر المرضية ، ووجود الضمانات الاجتماعيـة الحقيقية ، وتحقيق العدالة الاجتماعية كفيل بمواراة هـذه الظواهر . وما ينفق فى المراهم والمسكنات يجب أن ينفق فى عمليات البتر والترميم الأساسية ، لنصل إلى حل حاسم دائم .

* * *

ولكن حذار — كما قلنا — أن نرتجل . فالبناء الاجتماعى بناء ضخم ، وهو لا يبنى فى يوم وليلة ، ولا يقوم على أسس من وحى البديهة . ومجتمعنا الحـاضر قد قام على دعائم مغرقة فى التاريخ متطاولة فى الزمن ، فمحاولة إيجاد مجتمع جديد يجب أن تسبقها إقامة دعائم قوية يستند إليها — حتى لا تحدث رجة يمكن اتقاؤها — وهذه الدعائم هى الدراسات والإحصاءات لكل موجود ولكل ممكن ، ولوسائل الإمكان .

وهذه الدراسات يجب أن تبدأ منذ الآن بصفة جدية . فالزمن لا يمهلنا ، والعالم لا ينتظرنا وقد ضاعت علينا سنوات الحرب الطويلة — مع الأسف — فى شبه غيبوبة بليدة ، وفى حماقات وتتية بلهاء ، فلم نستعد فيها بشئ لما ينتظرنا بعد الحرب ، ولم ننتبه إلا أخيرا جدا إلى هذا الواجب المقدس .

والذى أريد أن أقوله وأن أكرره : إن وجود هيئة حكومية لا يعفى الهيئات الشعبية من هذا الواجب ، ولا يعفى جماعات الشباب خاصة من النهوض له . وهم فى نجوى من قيود الحكومة ، ومن تقاليد "الروتين" . وفى وسعهم أن يقوموا بدورهم لأنفسهم وللوطن وللإنسانية ولن يكونوا خاسرين — حتى من الوجهة الشخصية — فالمستقبل لمن يدرس ويفهم وينشئ على أساس .

سيد قطب